موقف طه حسين من بشرية القرآن

م. د. زينب عبد المجيد محمد أحمد
مديرية تربية بغداد/الكرخ الثانية
evaraz185@gmail.com

الملخص

هذا بحث صغير تحمل وريقاته بعضا من الردود على الآراء التي جاء بها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، يتبين من خلالها موقف طه حسين من بشرية القرآن، وذلك في محاضرة ألقاها على طلبة كلية الآداب في الجامعة المصرية مفادها أن مصدر القرآن الكريم هو النبي محمد (ﷺ) لا رب العالمين.

الكلمات المفتاحية (المكي، المدني، القرآن، التشريع، القسوة، الخلو، السباب)

Taha Hussain attitude towards the missionary of Al Qura'an Al Kareem
This is a small paper whose papers contain some of the responses to the opinions expressed by the Dean of Arabic Literature, Dr. Taha Hussein, which shows Taha Hussein's position on the humanity of the Qur'an, in a lecture he gave to students of the Faculty of Arts at the Egyptian University stating that the source of the Holy Qur'an is the Prophet Muhammad not the Lord of the worlds

*K*eywords: Meccan, Civilian, Qur'an, Legislation, Cruelty, Emptiness, Cursing.

المقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه. وبعد:

فإن أعظم ما تصاب به الأمة أن يكون مصابها بأبنائها، لأن الأم الرؤوم لا تنتظر من أبنائها إلا البر والإحسان، ولقد أصيبت الأمة الإسلامية بأبناء لها ممن تنكبوا الطريق، وضلوا سواء السبيل، أمثال الجهم بن صفوان، وواصل بن عطاء، وطه حسين، وكثير آخرون غيرهم. وهذه السلسلة العدائية باعها طويل، راجت آراؤهم ذات الصبغة المضللة، ولا يزال تلامذتهم يشيدون بها. وأحببت أن أخوض في هذه الدراسة، لأنني اعتدت في نشاطاتي البحثية الدفاع عن

القرآن الكريم، والقراءات القرآنية، فما أن وقع في يدي طعن على القرآن الكريم أو تلحين للقراءات، إلا هممت بالبحث والتنقيب عن الموضوع.

ولقد وقفت هذه الدراسة على ما جاء به طه حسين من خلال موقفه من بشرية القرآن. أي أن مصدر القرآن هو النبي محمد (ﷺ) لا رب العالمين، قال ذلك في محاضرة أملاها على طلابه في كلية الآداب بالجامعة المصرية، استند في ذلك على خمس شبه سنعرض لها، ونعقبها بالمناقشة. ولقد وضع البحث على خمسة مباحث، سبقت بمقدمة وتمهيد، وتليت بخاتمة تضمنت أبرز النتائج.

المبحث الأول: شبهة اختلاف الأسلوب.

المبحث الثاني: شبهة الشد واللين.

المبحث الثالث: شبهة الهروب من المناقشة.

المبحث الرابع: شبهة قصر السور والآيات وطولها.

المبحث الخامس: شبهة الأحكام والتشريعات.

التمهيد

قال الدكتور طه حسين في محاضرته "يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، أو تأثيرات ببيئات متباينة، فمثلا نرى القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد أن القسم المدني أو اليثربي تلوح عليه إمارة الثقافة والاستنارة، فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي يتفرد بالعنف والشدة والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد مثل قوله تعالىچ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گگ گگ گگ گگ گگ گچ(المسد)چٱ ٻ ٻ ٻ پچ(العصر)چڈ ژ ژ ڑ ڑ کچ(الفجر)وچڻ ٹچ(التكاثر)ويمتازهذا القسم أيضا بالهروب من المناقشة، وبالخلو من المنطق فيقول تعالى چٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦچ (الكافرون) ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والضحى والفجر والعصر والليل والنهار والتين والزيتون...إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة، التي تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا.

وأما القسم المدني فهو هادئ لين، وديع مسالم، يقابل السوء بالحسن، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، فيقول چ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو چ (الأنبياء).

ويهجر مع أعدائه الترهيب والقسوة، ويسلك سبيل الترغيب والتطميع في المكافأة، فيقول چ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ (آل عمران) چ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ (الطلاق) كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية، التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة، يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن. أما طول آياته في هذا القسم، فهذا أمر جلي ظاهر، لأن إحدى آياته قد تزيد على عدة سور بتمامها من القسم المكي، أما أفكاره فهي منسجمة متسلسلة، ترمي أحيانا إلى غايات اجتماعية وأخلاقية. وعلى الجملة فإن ما في هذا القسم المدني من هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ، يدل دلالة صريحة على أن الظروف التي أحاطت بهذا الكتاب، أبان نشأته قد تطورت تطورا قويا" هذه محاضرة أملاها طه حسين على طلابه في كلية الآداب بالجامعة المصرية، ثم أخذها النائب عبد الحميد سعيد، وألقى بيانا في مجلس النواب في دورة سنة (١٩٣٢م) عن موقف طه حسين من القرآن، ونقل هذه المادة بنصها، ثم نقلها ورد عليها وكيل كلية الشريعة محمد أحمد عرفة في كتاب أسماه (عرفة، د.ت، ٤).

وهذا يستلزم أن القرآن الكريم لم يكن وحيا. وقد أخذ هذا القول من المستشرقين الحاقدين على الإسلام، فهذا القول قال به سافاري الذي ذكر اسم النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) على الغلاف بوصفه مؤلفا للقرآن الكريم (عوض، د.ت،٩).

وقال طه حسين أيضا "ليس يعنيني هنا أن يكون القرآن الكريم قد تأثر بشعر أمية بن أبي الصلت أو لا يكون فأنا لا أؤرخ القرآن" ثم قال "لم لا يكون أمية بن أبي الصلت قد أخذ من النبي (ﷺ) طالما أن مصادر أمية ومحمد واحدة وهي قصص اليهود والنصارى"(حسين،١٩٢٦م ، ١٢٠)

وبذلك يكون اعتمد طه حسين على استند إلى خمس شبه ليدعم بها نظريته:

١- القرآن الكريم في العهد المكي يحمل أسلوب سمات الساذجين والمنحطين، بينما تبدو في عهده المدني علامات الثقافة والتنوير.

٢- تجد في القرآن الكريم على العهد المكي العنف، والقسوة والغضب والوعيد، بينما تجد في المدني الهدوء والرزانة.

٣- تجد في المكي الهروب من المناقشة، والخلو من المنطق على عكس ما تجده في القرآن المدني حيث الحوارات والأخذ والرد.

٤- قوله إن القرآن الكريم يمتاز بقصر السور والآيات بينما المدني طويلهما.

٥- يخلو القرآن في العهد المكي من التشريعات والأحكام على عكس ما هو عليه القرآن في العهد المدني.

إن مصادر فكرة بشرية القرآن مأخوذة من الغرب، فالدكتور طه حسين ينقل رأي المستشرقين في هذا الجانب، الذين نوعوا الأساليب في عرض هذه الفكرة (البهي ،١٩٨٦م، ٤٨)

المطلب الأول

شبهة اختلاف الأسلوب

قوله "يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، أو تأثيرات ببيئات متباينة، فمثلا نرى القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد إن القسم المدني أو اليثربي تلوح عليه إمارة الثقافة والاستنارة..." وصف فيه أهل مكة -وكلهم من العرب- بالسذاجة، ووصف أهل المدينة -وفيهم كثير من اليهود- بالثقافة و الاستنارة.

إنما هو قول أساتيذه من اليهود والنصارى ممن درس على أيديهم، من المستشرقين(عوض، د.ت، ٩)، وهذا الذي نسبه طه حسين لنفسه يكاد يكون نفس ما قاله بلاشير ونصه "كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مفعما بالعواطف، قصير العبارات، فخم الصورة، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة، وكثيراً ما يكرر الآيات تَكراراً مملاً، حتى تنقلب معانيها إلى الضد، فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يَقُصُّ في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته بوتيفار، وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك، وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن، وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى"(مراد، د.ت، ٢٠٦، والمطيري،٢٠٠٦م، ٢١٧)

وهناك سبب آخر دفع طه حسين إلى هذا القول، وهذا السبب يتناسب تماما مع شخصيته تصدر من مفهوم المنفعة قال الدكتورطه حسين "نبني أمتنا الجديدة وعلاقاتها القريبة والبعيدة على أساس المنفعة.(الغزالي، د.ت، ١٤٥) وهذا السبب هو حبه للشهرة، فقد أدرك الرجل أن بمهاجمة الإسلام سوف يقف على قدم واحدة مع مشاهير عصره، وبالفعل صار مشهورا.

وقد قال الأستاذ محب الدين الخطيب وهو يتحدث عن طه حسين وقيمة بحوثه العلمية "ويقال إن الدكتور طه حسين رجع عن هذا اللغو أو تاب من هذا الكفر" (الغزالي، د.ت، ٢٨) والله تعالى أعلم.

قال الزرقاني رادا هذه الشبهة "وأما زعمهم أن القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة فهو مردود عليهم باطل من كل باب دخلوه وعلى أي وجه أرادوه لأنهم إن أرادوا بذلك ما توهموه من انفراده بالشدة والعنف أو السباب والإقذاع فقد علمت مبلغ ما فيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء في القرآن من ترغيب وترهيب في شطريه المكي والمدني على السواء" (الزرقاني، د.ت، ٢٤١/١)

المبحث الثاني

شبهة الشدة واللين

قوله "القسم المكي يتفرد بالعنف والشدة والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد"، فإن أرادوا بالسباب معناه المعروف عندهم من القحة والبذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة فقد چ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ چ (الكهف) كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟" (الزرقاني، د.ت، ٢٤١/١). فقال في سورة الأنعام چھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮲ ﮳ ﮴ ﮵ ﮶ ﮷ ﮸ ﮹ ﮺ ﮻ ﮼ ﮽ ﮾ ﮿ ﯀ ﯁ ﯂ ﯃ ﯄ ﯅ ﯆ ﯇ ﯈ ﯉ ﯊ ﯋ چ

يقول محمد أحمد عرفة "ونحن نخالفه في هذا، ونرى أن القرآن جميعه يمتاز بكل أنواع السمو والرفعة، والوقار والجلال، فهو إذا اشتد فعلى الفاسقين المفسدين، فهو إذا لان فللصالحين الأخيار يلين"(عرفة،١٣٥١هـ، ٤٤) .

فليس الكلام مع البدوي كمثل الكلام مع المدني، وسبب اختلاف الأسلوب راجع إلى أن أكثر الناس في العهد المكي كانوا من الوثنيين عنه في العهد المدني، إذ أكثر الناس هناك من أهل الكتب، ومن المعلوم أن الحديث مع الوثني لابد فيه من الشدة والحدة، والتهديد والوعيد، لكي يرعوي عن كفره، بينما أهل الكتاب عندهم أصول الإيمان، فلابد من اللطف معهم.(عكيوي، د.ت ،٢٦/١٢.) .

ثم إن سورة البقرة مدنية باتفاق، وقال الله تعالىچ ئى ئې ئى ئى ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئج ئحئم ئى ئي بج چوقالچ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ چ ففيها شدة وغضب وتهديد. (الزُرْقاني، د.ت، ٢٠٦) وهذا يعكس عدم دقة طه حسين في قوله أن الآيات المدنية فيها الهدوء والرزانة.

المبحث الثالث

شبهة الهروب من المناقشة

قوله "ويمتاز هذا القسم أيضا بالهروب من المناقشة، وبالخلو من المنطق" بينما يرى القسم المدني يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، لم يكن هنالك هروب من المناقشة وخلو من المنطق في العهد المكي، وإنما الأسلوب هو هو في كلا العهدين المكي والمدني، إذ يخاطب عقول المخالفين بالدليل المنطقي بادئ ذي بدء، فإذا أبى المخاطبون واتبعوا أهواءهم خاطب نفوسهم، وخوفهم من مغبة الكفر، أو باهَلَهُم، أو أمر النبي بمقاطعتهم، وما جاءت سورة (الكافرون) التي يرى فيها الدكتور هروبا من المناقشة، إلا بعد منازلات فكرية عميقة(عتر،١٩٩٣م، ٦٩)

قال نور الدين عتر" إن هذا الزاعم قد حكم على نفسه بالجهل المطبق أو التجاهل والتجني المهلك، فإن الآية التي أوردها على أنها من المدني(لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) إنما هي من القرآن المكي، وهي الآية (٢٢) من سورة الأنبياء، وهي مكية كلها، وهذه الآية مكية بالإجماع"(السيوطي ،١٩٧٤م ١/ ٧٠، وعتر،١٩٩٣م،٧١) .

المبحث الرابع

شبهة قصر السور والآيات وطولها

قوله "أما طول آياته في هذا القسم، فهذا أمر جلي ظاهر، لأن إحدى آياته قد تزيد على عدة سور بتمامها من القسم المكي، أما أفكاره فهي منسجمة متسلسلة، ترمي أحيانا إلى غايات اجتماعية وأخلاقية."

إن قوله إن القرآن الكريم يمتاز بقصر السور والآيات بينما المدني طويلهما ليس هو باكتشاف له، فقد أشار إلى هذا الأمر كثير من العلماء المسلمين مم ألفوا في علوم القرآن(الأبياري ، ١٤٠٥هـ، ٣/ ٦) .

يظن الطاعنون أن في في قصر السور المكية مثلبة على القرآن الكريم، وهم واهمون في ذلك، فقد تقتضي البلاغة أحيانا إلى الايجاز، وأحيانا أخرى إلى الإطناب، وأحيانا ثالثة إلى التوسط، إذ لكل مقام مقال(العيص، د.ت، ٨)

ثم إن عرب مكة كانوا أهل فصاحة وقد بلغوا الغاية فيها، والقمة في البيان، فكان يكفيهم الإيجاز، بينما كان أهل المدينة دونهم في الفصاحة، فناسبهم الإطناب(الزُّرْقاني، د.ت، ١٦٧/١).

قال محمد أحمد عرفة على هذه الشبهة "إن الذي يقرأ القرآن ولا يتدبره، ولا يكلف نفسه الصبر لمعرفة أغراضه، هو الذي لا يستبين كثيرا منها، فيبدو له متقطع الفكرة، مقتضب المعاني، ولكن الذي يتدبره، وينعم النظر فيه، ويقرؤه على سبيل الاعتبار، ويكون مع ذلك قد أوتي طبعا سليما، ودربة على معرفة منطق العرب، الذين يكتفون باللمحة والوعي السريع، يدرك كثيرا من أغراضه، ويبدو له قصده، فيرى الآيات المثيرة في غرض واحد، كالحلقة المفرغة مرتبطة بعضها مع البعض أتم ارتباط" (عرفة، د.ت، ٥٩)

المبحث الخامس

شبهة الأحكام والتشريعات

ادعى طه حسين إن السور المكية خالية من التشريعات والأحكام، فقال إنه يمتاز بـ"الخلو التام من التشريع والقوانين... هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة، التي تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا"، وإن هذه الأحكام موجودة في السور المدنية"كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج.."

وذلك مردود قطعا، فما تنزلت تلك الأحكام إلا على وفق الأحداث التي تحصل في المجتمع. فلما كان رسول الله (ﷺ) يدعو في مكة لم تكن الدولة في يديه ليحكم فيها بحكم الله، وإنما كانت مقاليد الأمور كلها بيد أصحاب الجاهلية، لذلك لم تدع الحاجة إلى نزول آيات الأحكام، إنما كانت آيات القرآن تنزل لبناء العقيدة، وإصلاح العادات ، وبيان مكارم الأخلاق.(إسماعيل، ١٩٩٩م، ٢٢١، والشحود، د.ت، ٢٣٨)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، رحمة العالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

بعد الخوض في غمار الدفاع عن القرآن الكريم، ضد الفكر الاستشراقي، نعرض بعض ما توصل إليه البحث، ومن الله التوفيق.

١- تأثر طه حسين بالمستشرقين من اليهود والنصارى، لا سيما أنه كان تلميذا لبعضهم أمثال دور كايم، الذي كان يردد آراءه وينسبها إلى نفسه أحيانا.

٢- إن شخصية طه حسين شخصية قائمة على أساس المنفعة، لذلك استطاع المستشرقون الحاقدون على الإسلام أن يؤثروا عليه، فأغروه بالمرأة والمال والمنصب.

٣- إن لكل شبهة قال بها الطاعنون رد جلي واضح، متمثلا في القرآن نفسه، إلا إن المغرضين يفتعلون الصنائع حسب ما يشتهون، ثم يأتي الرد ردعا وخذلانا.

المصادر

١- الأبياري، إبراهيم بن إسماعيل (ت١٤١٤هـ)، ***الموسوعة القرآنية***، مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥ هـ.

٢- إسماعيل، محمد بكر (ت١٤٢٦هـ)، ***دراسات في علوم القرآن الكريم***، دار المنار، ط٢ ، ١٩٩٩م.

٣- البهي، محمد ، ***الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي***، دار الفكر، لبنان،١٩٦٨م.

٤- حسين، طه، ***في الشعر الجاهلي***،دار الكتب المصرية بالقاهرة،ط١، ١٩٢٦م.

٥- الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم (ت١٣٦٧هـ)، ***مناهل العرفان في علوم القرآن***، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣.

٦- السيوطي، عبد الرحمن، جلال الدين (ت٩١١هـ)، ***الاتقان في علوم القرآن***، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٤ م.

٧- شايب، خضر، ***نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر***، مكتبة العكبية، د.ت.

٨- الشحود، علي بن نايف، ***المفصل في موضوعات سور القرآن***، د.ط، د.ت.

٩- عتر، نور الدين محمد ، ***علوم القرآن الكريم***، مطبعة الصباح –دمشق، ط١، ١٩٩٣م.

١٠- عرفة، محمد أحمد، ***نقض مطاعن في القرآن الكريم***، علق عليه: السيد رشيد محمد رضا،مطبعة المنار –مصر، ط١، ١٣٥١هـ.

١١- عكيوي، عبد الكريم، ***رسائل عن النورسية***، جامعة ابن أزهر ،أغادير –المغرب.

١٢- عوض، إبراهيم، ***المستشرقون والقرآن***،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١.

١٣- العيص، زيد عمر عبد الله، ***علم المكي والمدني في عيون المستشرقين عرض ونقد***، د. ط، د. ت.

١٤- الغزالي، محمد، ***الخديعة الكبرى حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي***، دار نهضة مصر، ط١.

١٥- الغزالي، محمد، ***دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين***، دار نهضة مصر، ط١.

١٦- مراد، يحيى، ***افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها***، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

١٧- المطيري، عبد المحسن ابن زبن بن متعب، ***دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع الهجري والرد عليها***، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦ م.